الأدب المقارن أولى ماستر أدب جزائري.....(.د.حميدة سليوة)

محاضرة:

الأدب المقارن النشأة والتطور

يرتبط نشوء الأدب المقارن بظواهر التأثير والتأثر بين آداب الشعوب المختلفة لغويا وعرقيا وثقافيا، وهذه الأخيرة قديمة جدا قدم الأدب الإنساني، ألم يتأثر الأدب الروماني بالأدب اليوناني القديم؟ أو لم يتفاعل الأدب العربي مع جاره الفارسي، والأمر ذاته مع الآداب الحديثة والمعاصرة، وهكذا شكلت هذه العلاقات العفوية مادة للأدب المقارن كمجال معرفة، وذلك أن الظروف التاريخية لم تكن لتسمح بظهور هذا المجال قبل القرن التاسع عشر، وان كانت له مقدمات قبل هذا التاريخ.

1-إرهاصات الأدب المقارن:

ظهور مصطلح الأدب المقارن مع أبال فيلمان Abel Villemain عام 1828، في واحدة من محاضراته حول علاقات الأدب الفرنسي مع الآداب الأوروبية الأخرى، لا يعني أن تاريخ الدراسات المقارنة بدأ مع فيلمان، فمحاولات المقارنة بدأت مع عصر النهضة(القرن 15 و16)، وهي فترة الأدب الكلاسيكية(1660-1680)، حيث لمعت مجموعة الثريا La pléiade الفرنسية في محاكاة الأدب اليوناني واللاتيني القديم ضمن ما يسمى بنظرية المحاكاة Imitation:« **أصبح الاهتمام الرئيس ينصب على تأسيس وتطوير ونشر نظرة إلى الأدب موروثة عم عهد الأغريق والرومان، وكانت المصادر الرئيسية في الأفكار.....وكان موضوع المناقشة الكبير هو العودة إلى الأقدمين ومحاكاتهم**»[1]، وهكذا عملت المؤسسة الأدبية في فرنسا على تكريس نموذج أدبي مطلق، بالإضافة إلى النزعة اللغوية المتعصبة للغة الفرنسية لغة الأدب والأرستقراطية.

واستمر الآداب القديمة تمارس تأثيرها ووهجها ضمن ما يسمى بعصر الأنوار(1751-1772-حيث اتجه النقد إلى الفصل بين الفنون الأدبية بتأثير من النماذج القديمة، ومن أثاره الايجابية :«**ترسيخ الإيمان بقدرة الإنسان على التقدم والتطور، والإيمان بأولوية الفكر العقلاني وما ترتبط**

1-أراق بن محمد(سعيد): الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، دار أسامة للنشر والتوزيع ونبلاء ناشرون وموزعون عمان الأردن، ط 1، 2015

به من مقتضيات البحث التجريبي والحس النقدي»[1]، وتخلص الفكر من الظلامية والأحادية التي دفعت فرنسا إلى الخروج من التمركز على الذات، وبالتالي تجاوز حدود الأنا والانفتاح على الآخر والأدب الآخر، وهي خطوة مهمة في التحولات الفكر الأدبي، والممهد للانفتاح الأدبي على الآداب الأجنبية من أجل إغناء الأدب وبالتالي إقامة قنوات تواصل بينها وبين الأدب القومي، ومن أهم العوامل الممهدة لظهور الدراسات المقارنة كان ظهور علم تاريخ الأدب(ق18) المساهم الأهم في ميلاد الأدب المقارن:« **طبيعيا أن لا يجد الأدب المقارن، وهو جزء من تاريخ الأدب عامة سبيله إلى الوجود، ذلك أنه لا يمكن أن تجرى المقارنات في غياب تواريخ الآداب الوطنية»**[2] ، والاتجاه إلى التأريخ للأدب الوطني دفع الباحثين فيه إلى البحث في تاريخ علاقات الأدب الفرنسي مع الآداب الأوروبية الأخرى كالاسبانية والانجليزية منها[3].

وتوثقت العلاقات بين الآداب الأوروبية في المرحلة الرومنسية، التي ساهمت في تطور تاريخ الأدب والنقد الأدبي، والتخلي عن الآداب القديمة بل والاطلاع على الآداب الأجنبية، وإعطاء الفرصة لكل أدب دون تفريق ولا مركزية، ثم الايمان بـ:« **روح العالم التي كانت عنوان الكتاب الذي نشره شيلينغ سنة 1798هي التي أحدثت التقارب بينه وبين غوته، وهي التي صاغها هذا الأخير في مفهوم الأدب العالمي»**[4]، وهي أن تقر الآداب القومية بتعددية الأدب والحاجة إلى التنوع والاختلاف راجين من ذلك التناغم تحت مظلة مذهب واحد وروح عامة واحدة، فكانت الرومنسية بذلك أداة تواصل بين الآداب المختلفة ومساهمة في قيام الأدب المقارن، بروح الانفتاح والمساواة التي حملتها، كما هي جهود مدام دستايل القائلة:« **الأمم ينبغي أن تستهدي كل واحدة منها**

1- أراق بن محمد(سعيد): الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، ص 50.
2-فان تيغم(بول): الأدب المقارن، تر: سامي الدروبي، دار الفكر العربي مصر، ص 19.
3-تجدر الاشارة إلى جهود فولتير الذي عرف الجمهور الأدبي بعبقرية شكسبير وسهل عملية تأثر الأدباء الفرنسيين به
4 - أراق بن محمد(سعيد): الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، ص 53.

بالأخرى»[1]، حيث شجعت على المقارن بين الألمان والفرنسيين، وأثنت على أهمية التبادل الثقافي بين الشعوب[2].

2-النشأة والتأسيس:

شهدت أوروبا ثورة علمية هائلة أواخر القرن18 إلى بدايات القرن 19، أدت إلى نهضة معرفية قوامها الفلسفة الوضعية والمنهج العلمي والموضوعية، وهذا ما شجع مؤرخي الأدب أمثال هيبوليت تن Hippolyte Tainعلى تكييف المناهج الأدبية مع هذه المبادئ؛ وحاول هذا الأخير:«**أن يقيم تاريخا للأدب على أساس موضوعي، تفسر فيه الظواهر الأدبية من خلال ارتباطها بظواهر كونية وخصائص بشرية أكثر اتساعا، مثل خصائص السلالات البشرية(الجنس) والخصائص المكانية التي يعيش فيها شعب من الشعوب(البيئة) ثم الاطار الزمني الذي يتم فيه حدوث لون ما من الانتاج الأدبي(العصر)**»[3]، وهو بهذا ينقل المفاهيم من علم البيولوجيا إلى الدراسات الإنسانية، وبالتالي التجديد في أساليب دراسة التاريخ الأدبي وتوسيع المجال من الأدب القومي إلى الآداب العالمية.

كما كان لسانت بيف Sainte beuve الدور الواضح في الدفع بالدراسات في مجال الأدب إلى المقارنة، خاصة في:« **نظرية الفصائل والأنواع وفي هذا الاتجاه كتب دارون(1809-1882) كتابه المشهور عن أصل الأنواع، وبنفس الروح كتب سانت بف عن الإنتاج الأدبي**»[4]، فهو يدعوا إلى تقسم الأدب إلى عائلات وتحديد ملامح كل عائلة، على غرار ما يحصل في علم الحيوان والنبات، وهو يدعو كذلك إلى تجاوز الحدود اللغوية للآداب، دون نسيان برونتيار Brunetierوتعود إليه البدايات الأولى للدرس المقارن، الذي رأى بضرورة معرفة مستوى تطور الأدب الفرنسي من خلال مقارنته بالآداب الأخرى، ومعرفة ومتابعة التطورات الحاصلة في مختلف

1-درويش(أحمد): نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع القاهرة، 2002 ص 22

2- الصادر عام 1810De L'Allemagne- في كتابها من ألمانيا.

3 - درويش(أحمد): نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي، ص 23.

4- المرجع نفسه، ص 22.

الأجناس الأدبية، دون أن ننسى أن المقارنة :« **أحد أهم ملامح القرن التاسع عشر، سواء في حقل الأدب وعلوم اللغة(النحو المقارن)، أو في حقل العلوم(الفيزيولوجيا المقارنة)**»[1]، وفي مختلف المعارف حتى عرفت مصنفات في التشريح المقارن والكيمياء المقارنة، لهذا كان ظهور مصطلح الأدب المقارن في السياق الجامعي الفرنسي، انسياقا مع الموجة العامة السائدة آنذاك، بالإضافة إلى نشاط الترجمة الملحوظ الذي ساهم في الانفتاح على الآداب الأخرى الذي ظهر في المجلات والصحف.

وكان لمصطلح الأدب المقارن أول ظهور في عام 1830 ضمن محاضرات جان جاك أمبير التي كان يلقيها في إحدى ثانويات مرسيليا تحت عنوان"**التاريخ المقارن للفنون والآداب عند الشعوب كلها**"، وهو بهذا يقرن المقارنة بالتاريخ الأدبي، وهو نوع جديد من المعارف في مجال الدراسات النقدية، وهي الفترة ذاتها التي قدم فيها أبال فيلمان محاضراته تأثير انجلترا وفرنسا في بعضهما البعض، وتأثير ألمانيا وايطاليا وتأثرهما بأدب فرنسا، والتي تعد:«**أول كتاب منهجي في الأدب المقارن**»[2]، حيث حاول أن يقدم بتسلسل تاريخي ما أخذه الفكر الفرنسي عن الآداب الأجنبية وما قدمه لها من تأثير. وبعده توالت الجهود من أساتذة بمختلف الجامعات الفرنسية، أمثال كلود فوديل من جامعة السوربون، وإكرافييه ماريبه في رين وشال في باريس.

ومن فرنسا انتقلت موجة الأدب المقارن إلى مختلف الجامعات الأوروبية بداية من سويسرا، بتأثير من كتاب من المانيا لمدام دوستايل، ثم الأستاذ جوزيف هورنونغ Joseph Hormungعام 1850، الذي كان يقدم دروس الأدب المقارن في أكاديمية لوزان، إلى أيطاليا سنة 1863 ثم المجر عام 1877، وقبلها أنجلترا وألمانيا عام 1848، وهكذا وخلال سنوات أصبح الأدب المقارن مادة أساسية في كل مقرر جامعي، وكاد القرن التاسع عشر ينقضي إلا وقد سافر إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث أدرج في جامعة كولومبيا عام 1899 وجامعة هارفارد 1904.

مدارس الأدب المقارن

1- أراق بن محمد(سعيد): الأدب المقارن في ضوء التحليل النقدي للخطاب، ص 54.
2 - درويش(أحمد): نظرية الأدب المقارن وتجلياتها في الأدب العربي، ص 24.

1-*المدرسة التاريخية(الفرنسية):*

المدرسة الفرنسية، ويعود إليها وضع الأسس والمبادئ الأساسية للأدب المقارن، وكانت الاتجاه الوحيد والسائد في الدراسات المقارنة، وهي المحتضنة لميلاد الأدب المقارن في القرن التاسع عشر، وبقيت الاتجاه الوحيد في هذا المجال إلى خمسينيات القرن العشرين.

وجد هذا التوجه في ظروف تاريخية وثقافية غذتها النزعة إلى الانفتاح ونبذ الانعزالية التي دامت في فرنسا مدة طويلة، وهذا ما زاد من اطلاع الفرنسيين –أدباء ودارسين– على الآداب الأخرى والأوروبية خاصة، ونشاط عملية الترجمة التي ساهمت في الاطلاع على مختلف الآداب وزيادة الصلات الأدبية بين فرنسا وما جاورها من أمم، وظهور الصحف والمجلات التي ساهمت في نشر نصوص لأدباء أجانب، ومن المميز في هذه المدرسة أنها ترعرعت في كنف الدراسات التاريخية والفيلولوجية التي بلغت ذروتها آنذاك، لهذا سميت "**المدرسة التاريخية**"، فقد اهتمت بادئ الأمر بتاريخ العلاقات الأدبية الدولية كما يقول ماريو فرنسوا غويار[1].

يعد كتاب غويار المذكور آنفا تلخيصا لأهم أسس ومبادئ وموضوعات المدرسة الفرنسية، ظهر عام 1951، أبرز لكنه تلخيص لجهود دامت قرابة القرن من الزمن ساهم فيها الدارسين الفرنسيين للأدب المقارن، أمثال بالد نسبرجر وبول فان تيغم وبول هازار وجون ماري كاريه، حيث بفضلهم تأسس الوعي المنهجي المقارن، حيث اتفقوا على موضوع الأدب المقارن الأساس هو "دراسة التأثير والتأثر بين الآداب المختلفة اللغات"، حتى عرفه غويار بـ:« **الأدب المقارن هم تاريخ العلائق الأدبية الدولية، فالباحث المقارن يقف عند الحدود اللغوية والقومية ويراقب مبادلات الموضوعات، والفكر، والكتب، والعواطف بين أدبين أو عدة آداب**»[2]، فالباحث بهذا ملزم بتتبع حركة المبادلات الأدبية بين الشعوب، وعملية انتقال الموضوعات والأفكار والتيارات والمشاعر والكتابات وحتى الأجناس خارج حدود الأدب القومي، كانتقال حركة الشعر الحر من الثقافة الغربية إلى الثقافة العربية.

1غويار(ماريو فرنسوا): الأدب المقارن، تر: هنري وغيب، منشورات عويدات، ط2، بيروت باريس1988، ص15

2- غويار(ماريو فرنسوا): الأدب المقارن، ص 15.

أهم الأسس والمبادئ في المدرسة الفرنسية:

- التأثير والتأثر: دراسة مواطن التلاقي بين الآداب المختلفة دراسة تاريخية، لهذا لا تدخل في مجال المقارنة دراسات التشابه والتقارب.
- دراسة التأثير لا تعنى بظواهر المحاكاة والتقليد، ولا تعني علاقة التأثر إعجابا وانبهارا قد تكون رد فعل أو معارضة.
- الأدب المقارن متمم ضروري لتاريخ الأدب وهو فرع منه.
- اشتراط إثبات الروابط التاريخية بين الآداب المختلفة كشرط لإجراء المقارنة، لهذا لابد من صلات تاريخية أكيدة تثبت تأثر أحد الآداب بالأخر.
- اختلاف اللغة شرط أساسي في إجراء المقارنة، فلا تجوز مقارنة الأدب القومي، بآداب تكتب بلغته القومية نفسها.
- التمركز على الأدب المؤثر واعتبار عملية التأثير معيار تفوق، في حين التأثر عملية سلبية وبالتالي دراسة نتيجة التأثير على مستوى الأدب المتأثر.

ساد هذا المنهج في الدراسات المقارنة قرابة قرن من الزمن، ومع سنوات الخمسين بدأت الآراء النقدية المعارضة تطاله من داخل فرنسا وخارجها، وهكذا بدأت الأطراف المعارضة تشكل توجهات خاصة بها داخل أطار الأدب المقارنة، ولعل أشد موجدة نقد تعرض لها التوجه الفرنسي كانت من أمريكا فيما يسمى بـ: أزمة الأدب المقارن، حيث تحولت هذه الانتقادات بالتدريج إلى توجه مستقل سمي بـ المدرسة النقدية(الأمريكية).

2-المدرسة النقدية(الأمريكية):

حمل أعلام المدرسة الأمريكية التجديد إلى مناهج دراسة الأدب المقارنة، متخذين من نقد ومعارضة المدرسة التاريخية في صياغة أسس وأساليب البحث المقارن في الأدب، لهذا يمكن

القول أن هذه المدرسة انبثقت من قلب المدرسة الفرنسية وعارضتها، وتهدف إلى تحديد الأدب المقارن وإعطاءه بعدا إنسانيا ينأ به عن الحدود اللغوية التي وضع فيها سابقا.

تعرضت دراسات التأثير والتأثر بالمعنى التقليدي للكثير من النقد من طرف التيار المقارن الجديد، ومنهم كان رينيه وليك، في محاضرته بالمؤتمر الثاني للرابطة الدولية للأدب المقارن في أمريكا، فكانت اعتراضاته كما يأتي:

-عدم وجود تحديد واضح لموضوع الأدب المقارن، واستثناء دراسات التوازي والتشابه.

-عدم التركيز على العمل الأدبي بل على العلاقات التاريخية، حيث تحضى الوسائط والعلائق التاريخية بأهمية تفوق العناصر الأدبية.

-النزعة المحورية والاندفاع بعوامل قومية، وهذا ما يتعارض مع عالمية وإنسانية الأدب.

وكانت هذه النقاط منطلق لميلاد توجه جديد في الدراسات أطلق عليه صفة"النقدي"، وكان هذا التوجه مرتبط بالتحولات المعرفية وبكل ما جلبه القرن العشرين من تطور في مجال النقد والدراسات الأدبية، سعت إلى دراسة النص الأدبي في ذاته ومن أجل ذاته، أي الاهتمام بنصانية النص وجمالياته لا بتاريخيته، وهكذا جاء تعريف هنري ريماك أحد أقطاب هذه المدرسة:« **دراسة الأدب بحيث تتعدى الدراسة حدود القطر الواحد، ودراسة العلاقات القائمة بين الأدب من ناحية، وبين مجالات المعرفة والمعتقدات الأخرى كالفنون والفلسفة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية، والعلوم البحتة، والأديان من ناحية ثانية»**[1] ، وبهذا يتحرر الدارس المقارن من قيود كثيرة منها الدراسات الأدبية/ الأدبية ويتوسع الموضع ليضم المقارنة مع الفنون ومجالات المعرفة المختلفة، والقيد الثاني هو شرط" اختلاف اللغة"؛ حيث أن هذا الشرط كان يستثني أي مقارنة بين أدبين مشتركين في لغة واحدة، كالأدب الفرنسي والكندي المكتوب بالفرنسية مثلا، حيث أن التعريف السابق لا يشترطه إطلاقا بل يبقى على الاختلاف الثقافي بين الدول.

1-وليك(رنيه): مفاهيم نقدية، تر: عصفور(محمد)، عالم المعرفة، الكويت 1987، ص317.

مبادئ وأسس المدرسة النقدية:

-عدم التوقف عند تاريخ الأدب بل التوغل في جوهر النص الأدبي، بالاهتمام بالقيم الفنية للنص الأدبي، وإعطاء النقد الأدبي ونظرية الأدب دور في فعل المقارنة.

-عدم التمحور على الأدب القومي، وتقسيم الآداب إلى مركزية وهامشية.

-توسيع المقارنة لتشمل المقارنة بين الأدب من جهة وأصناف المعارف العلمية والفنية من جهة ثانية.

- عدم اشتراط ثبوت العلاقة التاريخية بين الآداب، وتوسيع مجال الأدب المقارنة ليشمل دراسة التشابه والاشتراك(الأدب العام)، وعدم حصره في دراسات التأثير والتأثر.

3-المدرسة السوسيولوجية (السلافية):

واحدة من التجارب الهامة في مجال الدراسات المقارنة، وأن جاء ظهورها متأخرا بالنظر إلى التوجهين السابقين، وكان ظهورها نتيجة تضافر بين الفكر المقارن والنظرية الماركسية، القائلة بأن : الأدب هو جزء من البناء الفوقي للمجتمع، فهو يتغير ويتطور وفقا للبناء التحتي، زيادة إلى أن لكل مجتمع أدبه ومميزات أدبه المختلفة عن آداب الشعوب الأخرى، ولكل طبقة من المجتمع أدبها الخاص.

كانت ندوة بودابست عام 1962، والمؤتمر الخامس للجمعية العالمية للأدب المقارن في بلغراد 1967، دور الكبير في ظهور هذا التوجه المقارن، ومدرسة تركز على أهمية التشابهات النمطية بعيدا عن شروط التأثير والتأثر، وهو تأريخ متأخر نوعا ما، حيث أن الأدب المقارن وجد صعوبة في الوصول إلى دول روسيا وأوروبا الشرقية، لعدة أسباب تاريخية منها فترة حكم ستالين مورس الضغط على الحركات الأدبية لكي تكون شيوعية خالصة، فلا يمكن للأدب إلا أن يكون أداة في يد الدولة، وأن يكون مرتبطا بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية المتغيرة، وهكذا كانت الستالينية تنظر غلى الكثير من الحركات الحداثية (الغربية)

بالكثير من الازدراء، وهذا ما لاقاه الأدب المقارن بمؤتمر موسكو 1960، حيث وجهت الكثير من الانتقادات لمفهوم الأدب المقارن ومناهجه.

لهذا كانت نشأة الأدب المقارن في الاتحاد السوفياتي مشروطة بتكييفه مع الفلسفة الماركسية، التي تربط الظاهر الأدبية بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي، وتعطي هذه المدرسة أهمية كبيرة لدور التاريخ في معرفة دور المجتمع والصراع الطبقي في الأدب وأجناسه: «**سيؤدي فالتشابه الاجتماعي–السوسيولوجي– إلى ظهور أدب أممي (نمطي) متشابه**»[1]، لهذا سميت هذه المدرسة بالسوسيولوجية، فهي ترى أن التأثير يكون بين بين البنية التحتية نحو البنية الفوقية، أما التشابه بين الآداب فهو ناتج عن تشابه الظروف الاجتماعية والسياسية لمجتمعات هذه الآداب.

أسس ومبادئ المدرسة السلافية:

–تطعيم الأدب المقارن بالفكر الماركسي والنظرية المادية الجدلية، وهذا ما سمي فيما بعد بـ" علم اجتماع الأدب المقارن".

– النزعة الإنسانية التي تنظر إلى آداب العالم كأنها وحدة مشتركة، بموضوعات مشتركة ومشكلات واحدة.

–تسليط الصوء على تجربة أدب روسيا وأوروبا الشرقية، والعالم الإسلامي وأدب أفريقيا وآسيا

–تسليط الضوء على الصراع الطبقي باعتباره مؤثر قوي في موضوعات الأدب، وفي استقبال الآداب الأجنبية.

– الاهتمام بدراسة التشابه والاشتراك بين آداب الشعوب، والابتعاد عن دراسات التأثير والتأثر

–الدعوة لتوظيف والاستفادة من مختلف المدارس الأدبية والنقدية في الدراسة المقارنة للأدب.

1-علوش(سعيد): مدارس الأدب المقارن، المركز الثقافي العربي، المركو الثقافي العربي المغرب، ط1، 1987، ص133